الفصل

7

التفاعلات

عندما نشر فرويد كتابه ثلاث مقالات في نظرية الجنسية في عام 1905، لم يعد متردداً في نظرياته، أو في أهميته، أو في الترويج لنفسه وكان قد نشر من قبل كتاب تفسير الأحلام كما حصل على مكانة الأستاذية في الجامعة. ساعدته هذه الإنجازات على تجاوز المحنة اللاحقة ألا وهي انهيار العلاقة بينه وبين ويلهالم فلييس.

تغيرت العلاقة بين فرويد وفلييس منذ عام 1897 عندما شرع فرويد في إنشاء نظرية نفسية للأحلام بينما بقي فلييس عالم أحياء محافظ. احتدم الخلاف بينهما عندما تقابلا في صيف عام 1900. إذ اقترح فلييس أن هناك عمليات دورية ـ أحداث بيولوجية تجري على شكل دورات مثل دورة الحيض ـ تؤثر على العقل وعلى وجه

obeikandl.com

فرويد مع زوجته وأمه أثناء إجازة الصيف في منتجع جبلي في عام 1905. كان لأم فرويد حضوراً قوياً ونشطاً في منزل فرويد خلال حياتها.

التحديد، قال أنه لا بد لهذه الدورية الحيوية من أن تؤثر على مسيرة المرض النفسي بما في ذلك الأمراض التي كان يعالجها فرويد بواسطة علاجه التحليلي النفسي.

احتج فرويد، المشدوه والمنزعج، على فلييس أنه حاول تقويض أهمية كل أعماله. إذ ما فائدة العلاج إذا كان المرض خاضع لساعة داخلية؟

ورداً على فرويد اتهم فلييس المذهول فرويد بوضع أفكاره الخاصة في عقول مرضاه.

وخلال تلك الزيارة الصيفية المقيتة، علَّق فرويد أيضاً قائلاً بأنه لا يمكن حل العُصابات إلا بنظرية مستمدة من الجنسية الثنائية عند كل شخص. اعترض فلييس على ذلك لكونه قال الشيء ذاته منذ عامين ونصف العام حينما رفض فرويد تصديق ذلك.

وبعد فترة قصيرة من هذا اللقاء، بدأت العلاقة بين فرويد وفلييس بالانحلال. بدا فرويد وكأنه يستغل فلييس فتارة يرفض أفكاره وتارة أخرى يتبناها وفقاً لمزاجه. حاول فرويد في البداية أن يستعيد صداقته مع فلييس وذلك بعرضه عليه المشاركة في تأليف كتاب بعنوان الجنسية الثنائية عند الإنسان، إلا أن فلييس رفض العرض وتوقف الاثنان عن تبادل الرسائل قبيل عام 1902. وفي عام 1903 نشر أحد زملاء فرويد الشباب ويدعى أوتو ويننغر Otto Weininger كتاباً عنوانه الجنس والشخصية، والذي سرق بشكل فاضح كثيراً من أفكار فلييس عن

الجنسية الثنائية. وسرعان ما اكتشف فلييس أن فرويد له يد في هذه الجريمة. أنكر فرويد هذه الاتهامات في بادئ الأمر، وبعدئذ ادعى أن هناك الكثير من المؤلفين الذين كتبوا عن الجنسية الثنائية قبل فلييس. ومع ظهور كتاب آخر ـ والأغلب أنه منتحل ـ لأحد أصدقاء ويننغر ويدعى هيرمان سوبودا Herman Swoboda والذي بحث الفترات الحيوية وهي 23 يوماً و28 يوماً، انقطعت العلاقة بين فرويد وفلييس نهائياً. من المستغرب أن تنتهي العلاقة بين فرويد وفلييس بهذه الطريقة مع العلم أن فرويد ذاته كان ضحية لنفس النوع من اللصوصية العلمية عندما كان شاباً والمتعلقة بالخصائص التحذيرية للكوكائين. وبذلك يكون فرويد قد هاجم فلييس بأعتى سلاح كان قد تعرض له فرويد في حياته. لم يعد فرويد خائفاً حقاً من قدرته، حتى من قدرته على إيذاء أصدقائه.

في عام 1902 اقترح طبيب شاب يدعى ويلهالم ستيكل Wilhelm Stekel على فرويد أن يلتقي أسبوعياً مع ممارسين آخرين من المهتمين بالتحليل النفسي. هذه الجماعة التي اسمها جمعية الأربعاء النفسية، قَدِمت أخيراً إلى فرويد متحمسة لسماع أفكاره. في كل أسبوع كانت الجماعة تستمع إلى ورقة بحث أعدها أحد الأعضاء، وتأكل الحلويات، وتدخن السجائر وتتناقش في الموضوع المعروض أمام أعضائها. أما فرويد، الذي يعد الأب المؤسس للتحليل النفسي، فقد كانت له دائماً الكلمة الأخيرة.

جلب الأعضاء أفراداً جُدُد للانضمام إلى الجماعة مما أدى إلى ازدهار الجمعية. ومع حلول عام 1906 أصبح هناك 17 عضواً وحوالي 12 شخصاً يحضرون في كل اجتماع. وفي شهر تشرين الأول وظفت الجمعية أوتو رانك Otto Rank، وهو باحث في علم النفس تعلم علم النفس ذاتياً وكان صديقاً مقرباً من فرويد، من أجل تسجيل الملاحظات أثناء الاجتماعات وبقدوم عام 1907 تحولت الجمعية إلى مجزرة. إذ أخذ الأعضاء يتنافسون فيما بينهم من أجل الحصول على اهتمام فرويد كما أخذوا يتخوفون من بعضهم البعض على ملكية الأفكار ويهينون أعمال بعضهم البعض إلى درجة أصبح الكتّاب يشبهونهم بعائلة الأولاد الذين يتسابقون على اكتساب محبة أبيهم. خاب أمل فرويد بأتباعه كما عَقَّبَ أحد الزائرين الألمان تعقيباً فيه إشفاق حينما قال إن السمعة التي اكتسبها فرويد بسبب تلك النظريات الغريبة جعلت عدداً قليلاً فقط من الأطباء المحترمين يحضرون اجتماعاته.

وفي عام 1908 تمت إعادة تنظيم جماعة فرويد باسم جديد هو جمعية ڤيينا للتحليل النفسي.

ومع ازدحام المؤيدين المحيطين بفرويد، بدأ بصياغة أكثر نظرياته إثارة للجدل ألا وهي نظرية الجنسية الطفولية.

لم يكن فرويد أول مؤلف يكتب عن موضوع الجنسية أو حتى أول كاتب يتحدث عن الدوافع الجنسية الطفولية.

obeikandl.com

إذ نشر العديد من الأطباء مناقشات من العلاقة بين مص الأصبع والتدرب على استخدام المرحاض، ونمو الشخصية عند الأطفال. إلا أن فرويد كان مستعداً لتقديم نظرية كاملة عن النمو الجنسي.

وفي الطبعة الأولى من كتاب تفسير الأحلام علَّق فرويد قائلاً: «إننا نقدر تقديراً عالياً السعادة عند الأطفال لأنها لا تزال بريئة من الرغبات الجنسية». وبعد خمس سنوات وفي كتابه ثلاث مقالات عن نظرية الجنسية عدَّل فرويد ذلك التصريح مدعياً بأنه يصح فقط حينما يكون الأطفال في مرحلة الكمون

ذكر فرويد ثلاثة مراحل للنمو الجنسي: مرحلة النشاط الجنسي من الولادة وحتى سن الخامسة، ومرحلة الكمون من سن الخامسة وحتى البلوغ، وفيها ينسى الأطفال ويتجاهلون المشاعر الجنسية ومرحلة البلوغ الجنسي.

لم يفترض في الجنسية الطفولية المبكرة أن تكون مطابقة للجنسية البالغة. ووفقاً لما يراه فرويد، يجد الأطفال لذة جنسية في كثير من النشاطات من مثل مص الأصبع وحينما يربتون ويلمسون أجسامهم.

وحينما يحتفظون أو يخرجون البراز حينما يمارسون الاستنماء. بما أنه باستطاعة الأطفال أن يحصلوا على المتعة الجنسية بطرائق كثيرة جداً، ادعى فرويد أنهم منحرفون بأشكال متعددة، وهذا يعني أن هناك إمكانية لكل أنواع الانحرافات الممكنة عن كل طفل. استخدم

فرويد كلمة الانحراف ليعرف سلوك البحث عن المتعة أو اللذة في الأشياء أو الحيوانات عوضاً عن شركاء من بني البشر، والشعور بالرغبة تجاه أي شيء آخر غير الجماع الجنسي الطبيعي. اعتقد فرويد إمكانية حدوث مثل هذه الانحرافات عند الكبار في ظل ظروف خاصة، تتضمن مثل هذه الممارسات الاستعراضية (عرض العضو التناسلي أمام مشاهد) الشيئية (الحصول على المتعة الجنسية عن طريق الأشياء من مثل الأحذية)، والماسوشية (الحصول على المتعة الجنسية عن طريق الشعور بالألم أو التعرض للاضطهاد).

اعتقد فرويد أن الأطفال يمرون من خلال مراحل متعددة حيث تتركز المشاعر الجنسية عندهم على أجزاء معينة من الجسم. أما المرحلة الأولى فهي مرحلة التلذذ الذاتي auto erotic فالأطفال يحصلون على الشعور بالرضى بشكل عام عندما يمارسون المص بدايةً. ومع ذلك يمكن لأي جزء من أجزاء الجسم أن يحدث لذة جنسية، هذه هي المرحلة الشفوية. وخلال المرحلة التالية التي تحدث عادة في حوالي نفس الوقت الذي يتعلم فيه الطفل على استخدام المرحاض، إذ يجعل الأطفال على المتعة الجنسية من منطقة الإست (الشرج) ومن الاحتفاظ بالبراز داخل الأمعاء. وأخيراً وبعد المرحلة الإستية ينتقل مصدر المتعة الرئيسي عند الأطفال إلى الأعضاء التناسلية حيث تبقى كذلك مدى حياتهم. وخلال مرحلة الكمون، يحصل عند الأطفال «فقد للذاكرة» المتعلقة بنموهم

obeikandl.com

الجنسي السابق. وبدلاً من أن يكتشفوا أجسامهم يصعد هؤلاء الأطفال الذين هم في عمر المدرسة أو يعيدوا توجيه طاقتهم الجنسية إلى نشاطات أخرى من مثل النشاطات المدرسية والترفيهية.

وخلال العقد اللاحق، توصل فرويد إلى تعريف الفروق بين الهستيريا والاستحواذ بلغة هذه المراحل الجنسية الطفولية المبكرة. فقد اعتقد فرويد أن الأشخاص الوسواسيون ينتكسون إلى المرحلة الإستية، وذلك عندما يبدأ الطفل بالتعبير عن الغضب والحاجة إلى السيطرة. بينما ينتكس الأشخاص الهستيريون من ناحية أخرى إلى الحب السابق للأشياء يكون عادة الآباء، ويرفضون الجنسية البالغة بمجملها. في كتابه (ثلاث مقالات)، وصف فرويد النمو الجنسي عند المراهق. ففي فترة البلوغ ينتقل تركيز الطاقة الجنسية أو الليبيدو، من الذات إلى الآخرين.

يود المراهق في هذه المرحلة أن يشرك أشخاص آخرين في نشاطه الجنسي. يتخيل المراهقون في البداية أشياء ذات صلة بدوافعهم الجنسية وتُنشِّط هذه الحياة الحالمة الصلات الجنسية القديمة مع الآباء. ولكي يتجاوز المراهق هذه المرحلة يتوجب عليه أن يتحرر من سلطة الآباء. ينتقل تركيز الدوافع الجنسية عند البالغين إلى الأعضاء التناسلية بينما تحدث النشاطات الجنسية ذات الصلة بمناطق أخرى من الجسم على شكل مشاعر ما قبل

اللذة. تحث مشاعر ما قبل اللذة هذه البالغ لأن يواصل نشاطه إلى ذروة اللذة في النشوة. لقد بيّن فرويد حدوث مشاعر ذروة اللذة هذه عند البلوغ فقط. أثار كتاب فرويد (ثلاث مقالات) المشكلات لعدة أسباب، إذ لم يقدم مطلقاً تعريفاً للذة أو الإثارة. كما كان الكتاب مليئاً بالأفكار المنحازة السائدة عن جنسية المرأة، إذ بينما يحصل الرجال ببساطة على اللذة من أعضائهم التناسلية، تضطر النساء إلى كبت مشاعرهن الجنسية عن طريق نقل مركز اللذة من المنطقة الجنسية (الذكرية) الطفولية لعضو الحبس الخارجي وهو (البظر) إلى عضو الجنس الداخلي وهو المهبل. إن هذا المطلب وهو أن تضحي النساء بأهم مصدر للذرة الجنسية البالغة قد أضر بكل من النساء والمعالجين النفسيين منذ أن فكر بها فرويد أول مرة. ويحتاج النساء وفقاً لما رآه فرويد، أن يمروا بمراحل أكثر من المراحل التي يمر بها الرجال ليصلوا إلى مرحلة النضج، وهذه فكرة عزاها بعض مترجمي السير الذاتية إلى النمط الفيكتوري للنساء الضعيفات، اللاتي يفتقرن إلى العقلانية ويحتجن إلى من يحكمهن.

على الرغم من تصريح فرويد في كتابه ثلاث مقالات أن الجماع الجنسي الطبيعي مع الشريك المحبوب هو أقصى غاية للجنس، إلا أنه لم يخطر على باله أن الزواج أو العلاقة القائمة مع شريك واحد ضروريان للصحة النفسية. إذ كان يفضل الزواج الجنسي الحر للشبان والشابات وكان يشعر بالإحباط لعدم وجود وسائل منع

obeikandl.com

حمل فعالة. ومع ذلك في منزل فرويد حيث توقف التحليل النفسي عند عتبة الباب، كما قال فرويد، فقد كان لنظرياته الأثر القليل على حياته المنزلية. فقد وبخ ابنه على ممارسته الاستنماء وأغلب الظن أنه بقي مخلصاً لزوجته، لكنه لاحظ ظهور نفس الأشكال الطفيفة للهستيريا والعصاب عند أسرته مثلهم مثل أي شخص آخر.

ولعل الشخص الوحيد في أسرة فرويد الذي تأثر بنظرياته بشكل عميق هو ابنته الصغرى أنَّا التي أصبحت فيما بعد محللة نفسية.

وفي تلك الأثناء، كان فرويد يتعلم من مرضاه في العيادة. وكان أشهر ثلاثة مرضى عنده في تلك الفترة هم دورا Dora كانت هستيرية، ورجل الجرذ Rat Man كان وسواسياً، هانز الصغير Little Hans كان صبياً يبلغ الخامسة من العمر ويعاني من خوف بشكل الحركة يسمى الفوبيا. صورت دراسات الحالة هذه كيف كان فرويد يفكر بمرضاه وكيف سار في معالجتهم. ومع قدوم القرن الجديد لم يعد فرويد يضغط على جباه مرضاه يَحُضُّهم على التذكر بل أصبح يجلس على كرسي خلف السرير الذي يستلقي عليه مرضاه باسترخاء ليمارسوا التداعي الحر. كان هذا الأسلوب نافعاً جداً، فقد كان بمقدور مرضى فرويد أن يتحدثوا بحرية من غير أن يروا ردود أفعاله.

كذلك اعترف فرويد قائلاً «لا أستطيع أن أبقى والآخرون يحدقون بي طوال ثماني ساعات أو أكثر في اليوم» كان فرويد يعتقد أنه لا يجوز أبداً للمحللين النفسيين أن يسجلوا ملاحظاتهم أثناء انعقاد جلسات التحليل النفسي. إذ يحتاج المحلل أن يركز مجمل انتباهه على مرضاه ليجمع كل المعلومات عن عقول مرضاه ابتداءً من الأعراض إلى الأحلام إلى الأخطاء الإملائية في رسائلهم.

السرير في مكتب فرويد حيث كان يرتاح عليه مرضاه ويخبرونه بأعمق أفكارهم. بينما يجلس فرويد بعيداً عن مرأى المريض.

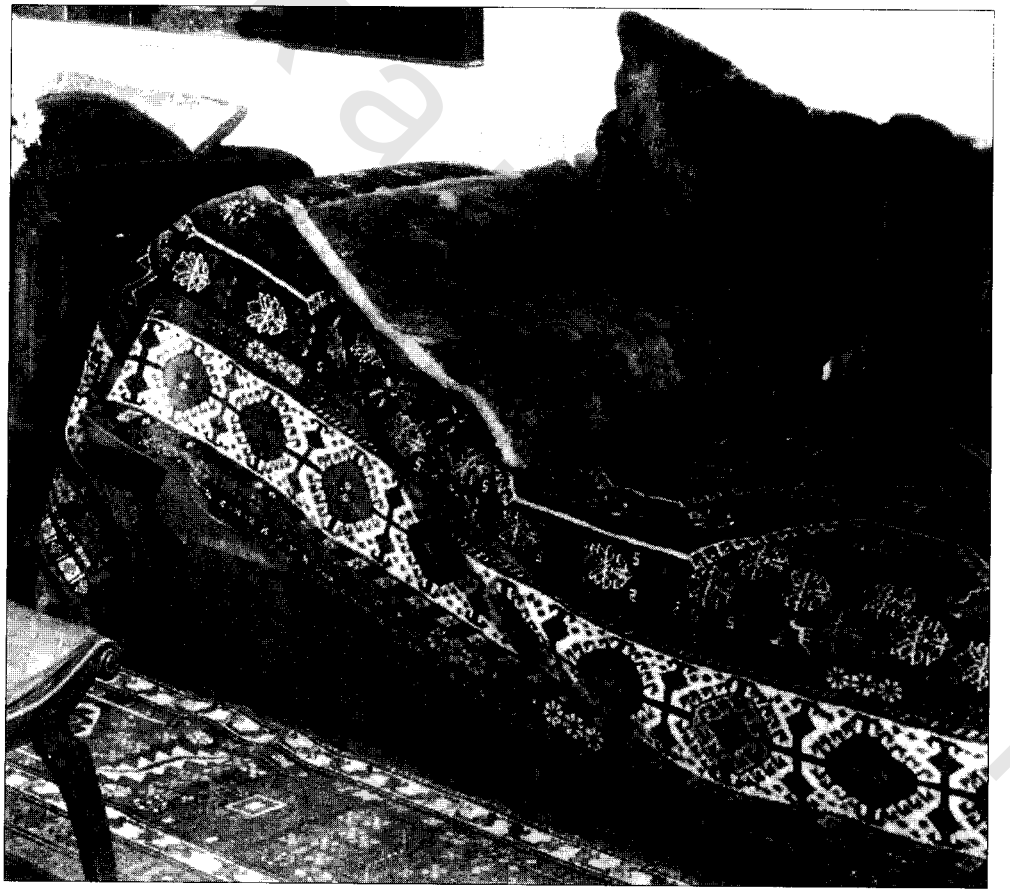

في عام 1905 نشر فرويد تاريخ حالةٍ كان قد دوَّنها منذ خمسة أعوام، تدعى «مقتطفات من تحليل لحالة هستيريا». فقد حلل فرويد حالة امرأة شابة أسماها دورا، وهي إيدا بوير Ida Bauer البالغة 18 عاماً، التي عانت من أعراض هستيرية شائعة من مثل الشقيقة والتهاب الحنجرة وسعال عصبي. كان فرويد في تلك الأثناء مهتماً جداً باستعراض نظرياته عن الهستيريا وعن رموز الحلم على مريض حقيقي في أوج مرضه. وبدت دورا كمرشح مناسب جداً لذلك.

شرحت دورا بسرعة كيف آلت حالتها إلى وضع يرثى له. فقد أمضت والدتها حياتها وهي تنظف على نحو وسواسي المنزل، منشغلة بذلك عن كل من زوجها وابنتها. وحينما بلغت دورا 16 عاماً قام أحد أصدقاء العائلة القدامى ويدعى السيد ك Mr. K بممارسة التحرش الجنسي مع دورا. وجهت دورا المصدومة والرافضة لطمة إلى وجهه. وحينما أخبرت أباها بما جرى آثر أن يصدق كلام السيد ك على كلامها معتبراً إياها مجرد مراهقة يملأ عقلها الهواجس الجنسية. لم يتخذ فرويد موقفاً من أحد حينما أخبرته دورا القصة لأول مرة، لكنه اكتشف بسرعة أن والد دورا كان عل علاقة غير مشروعة مع زوجة السيد ك. وكان بين دورا والسيدة ك صداقة حميمة وكانت السيدة ك المكان الذي تضع فيه دورا سرها. وكانت دورا قد نامت مع السيدة ك في سرير واحد عندما ذهبت الأسرتين لقضاء الإجازة معاً. تحدثت دورا عن «جسم

السيدة ك الأبيض الفاتن» خلال عملية التحليل. زد على ذلك أن السيد ك كان قد اعتدى على دورا أكثر من مرة واحدة. فعندما كان عمرها 14 عاماً أمسك بها السيد ك في مكتبه وأخذ يقبلها من شفتيها بحرارة. وكان طبيعياً أن تشمئز الفتاة الصغيرة من السلوك الماجن لرجل كبير في السن ـ أو ليس كذلك؟

لم يستطع فرويد أن يتقبل اشمئزاز دورا. فقد كان دائماً مناهضاً للأخلاق الاجتماعية عند الطبقة المتوسطة وأصر أن دورا قد أحست بالإثارة الجنسية عندما اعتدى عليها السيد ك.

ليس هذا النوع من الرغبة المستترة مستحيلاً. إلا أنه ليس أيضاً الشيء الذي كانت تصفه إلى فرويد. لقد كانت دورا، التي تعرضت للاعتداء من قبل صديق وللخذلان من أبيها، كالشيء المتطاير على غير هدى في عالم لا يرحم. وسرعان ما انضم فرويد إلى ذلك العالم.

وازدادت دورا رهقاً من مقاومة فرويد لإفادتها وغادرت فجأة بعد 11 شهراً من التحليل. لقد رفضت فرويد في نفس الطريقة التي رفضت بها السيد ك.

لقد كانت حالة دورا هامة ليس فقط لأن فرويد، الذي اعتاد أن يكون حريصاً وأن يصغي باهتمام، قد أخفق في فهم مشاعر دورا عن حياتها بل لأن حالتها قد أظهرت لفرويد مخاطر آليتي الإنقال Transference والإنقال المعاكس counter transference. في مصطلحات التحليل

obeikandi.com

النفسي يحدث الإنقال عندما ينقل المرضى مشاعرهم من موقف آخر في الحياة إلى علاقتهم مع محللهم النفسي. عادت دورا إلى عيادة فرويد مرة واحدة في عام 1902 واعترفت أنها قد أسقطت في الأساس سخطها من السيد ك على فرويد. وفي المقابل يحدث الإنقال المعاكس عندما يسقط المحللون النفسيون عواطفهم التي يحتفظون بها من الماضي على مرضاهم.

في أية عملية تحليل نفسي لا بد من أن ينجم عنها كلاً من آلية الإنقال وآلية الإنقال المعاكس وإذا تم التعرف عليهما فمن الممكن أن تساعدا كلا الفريقين في اكتشاف الرغبات اللاشعورية عند المريض. لم يعترف فرويد بأنه قد حصل عنده إنقال معاكس في علاقته مع دورا، ولم يبدأ في استخدام هذه الكلمة إلا في عام 1910، كما لم يكن يعرف أن عدم الشعور بحدوث الإنقال المعاكس يمكن أن يحرف التحليل النفسي عن طريقه الأصلي، لأنه يقضي على حياد المحلل النفسي.

لم يكن واضحاً السبب الذي دفع إلى حدوث هذا النوع القوي والعدواني من الإنقال المعاكس عند فرويد تجاه دورا. رأى بعض الكُتّاب أنه قد حصل من ناحية فرويد ذاته توحد في الحال مع السيدات، الذي يمثل المعتدي الذكري. وفي الوقت الذي كان فرويد يكتب فيه المقتطفات كان يفقد صلته مع فلييس وهو الرجل الذي أكد على وجود الجنسية الثنائية عند الإنسان والذي تذكره

فرويد فيما بعد على أنه الرجل الذي أعطاه شحنة جنسية مثلية.

وفي حالة دورا كتب فرويد ملحوظة في أسفل كتاب المقتطفات قال فيها:

«لقد أخفقت في اكتشاف وإعلام المريضة في الوقت المناسب أن حبها... الجنسي المثلي للسيدة ك كان التيار اللاشعوري الأقوى في حياتها النفسية».

في الوقت الذي لم يكن فرويد فيه مهتماً بالجانب الأنثوي من الحياة، كان يرفض فكرة انجذابه نحو فلييس ويتجاهل رغبة دورا الجنسية في السيدة ك (التي كانت قد رفضت من قبل السيد ك الذي تحرش بها).

في عام 1904 تعرف فرويد على طبيب نفسي سويسري يبلغ من العمر 30 عاماً والذي أرسل له بحثاً عن تطبيقات الأفكار الفرويدية على الفصام الذي هو مرض عقلي يفقد فيه المرضى صلتهم بالواقع ويشيع عندهم سماع الأصوات. أُعجب فرويد بهذا البحث وبدأ على الفور بمراسلة زميله الجديد الدكتور كارل غوستاف يونغ Carl Gustav Jung. عمل يونغ في عيادة للطب النفسي في جامعة زيورخ في سويسرا مع يوجين بلولر Eugene Blueler الباحث في الطب النفسي الذي صاغ مصطلح الفصام schizophrenia.

ومن رسائلهما الأولى المبكرة كان يُشمّ منها رائحة بذور الخلاف بين فرويد ويونغ. ففي التمهيد للبحث

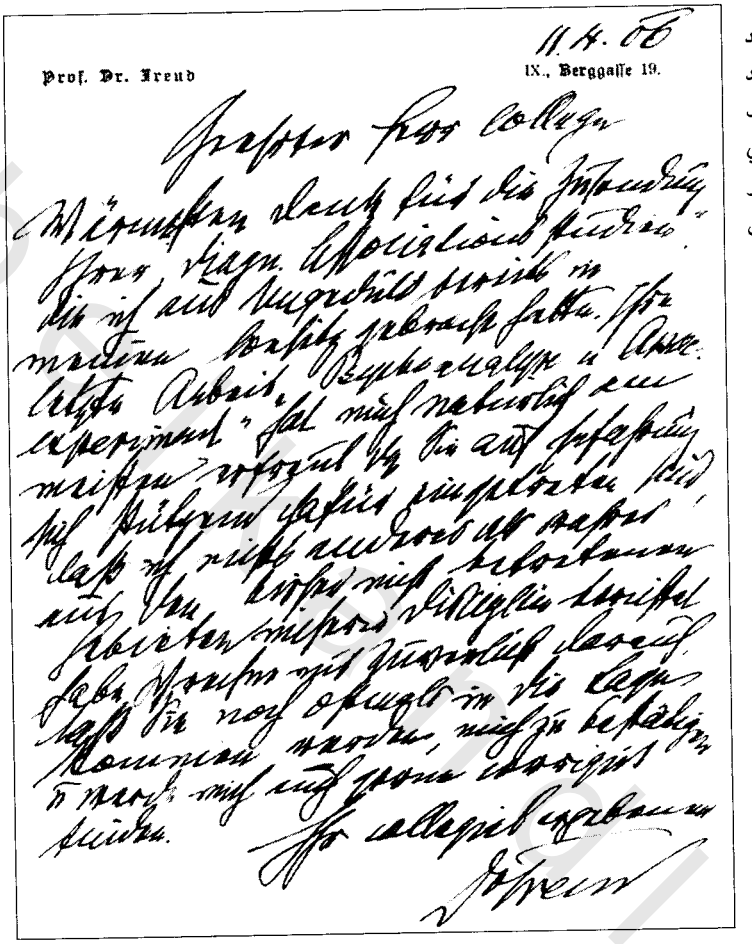
Prof. Dr. Freud
IX., Berggasse 19.

في عام 1904 بدأ فرويد يتبادل الرسائل على الأمد الطويل مع الطبيب السويسري كارل يونغ الذي كان قد بدأ باستخدام أفكار فرويد في معالجته لمرضى الفصام.

الذي أرسله إلى فرويد، ذكر يونغ أنه لا يعتقد أن الرضى الجنسي الطفولي هو السبب الوحيد للمرض النفسي وهذا تعارض مباشر مع موقف فرويد. ومع ذلك كان يونغ محط إعجاب فرويد. فقد كانت تنتظر يونغ حياة مهنية ذاخرة، إذ كان أكثر ذكاء من معظم أتباع فرويد في ڤيينا وربما الأهم من ذلك هو أنه لم يكن نمساوياً ولم يكن يهودياً. بين عامي 1906 و1910 بدأ فرويد يقطف ثمار

سمعته العالمية وشرع أجانب من أمثال الإنكليزي إرنست جونز Ernest Junes والهنغاري ساندور فيرينتشي S'andor Ferenczi بالانضمام إلى حلقته. ومع ذلك شعر فرويد أن يونغ ويونغ وحده يمكنه أن يسير بحركة التحليل النفسي قُدماً. فقد أراد فرويد بكل ما أوتي من قوة أن ينشر أفكار التحليل النفسي خارج نطاق عصبته التي تضم في غالبيتها يهود ڤيينا. وإلا شعر، أن كل أعماله سوف تذهب سدى ويتم تجاهلها ونسيانها عندما تصطدم بالنزعة ضد السامية. ومن يستطيع أن ينشر أفكار فرويد على أفضل وجه غير يونغ صاحب القامة الطويلة والعينين الزرقاوتين ابن القس المسيحي؟ أضحى يونغ ولياً لعهد فرويد، كما أصبح بديلاً جزئياً عن فلييس يحكم بصلابة فرويد وبرقة يونغ العاطفية.

لم يلتق فرويد ويونغ شخصياً حتى عام 1907 وهو العام الذي أجرى فيه فرويد تحليلاً نفسياً لأشهر حالة وسواس اصطلح عليها باسم رجل الجرذ Rat Man حينما جاء هذا المريض وهو محامي يبلغ من العمر 29 عاماً إلى عيادة فرويد كان عقله ممتلئاً بالخوف من أن مأساة ستصيب والده أو المرأة التي كان يتودد إليها أو أنه سوف يقتل شخصاً ما أو سيذبح نفسه، وجاء أخيراً إلى عيادة فرويد بسبب إحساسه بالرعب من قصة كان قد سمعها مؤخراً أثناء خضوعه للتدريب العسكري. واستناداً لما قاله النقيب أمر القضاء في بلد غير محددة في الشرق باستخدام شكل مريع من أشكال التعذيب ضد المجرمين.

يتم تقييد المجرم أرضاً ليوضع على مؤخرته جرذاً كبيراً ضمن وعاء.

وبتحريض الجرذ بواسطة مسعر حراري أحمر يبدأ بالقضم باتجاه الشرج، قاطع فرويد المريض عند تلك الفكرة، فبدت على وجه المريض نظرة مشوشة بين اللذة والقرف.

كان المفتاح لتحليل فرويد هو الكلمة الألمانية المقابلة للجرذ Ratte. وكما يحدث في الأحلام يقوم اللاشعور باستخدام التوريات مع الكلمات الحساسة. وفي هذه الحالة ربط المريض كلمة Ratte مع كلمة ألمانية أخرى heiraten وتعني أن يتزوج ومع كلمة ألمانية ثالثة Spielratte وتعني الجرذ المقامر في إشارة إلى ديون أبيه الناجمة عن تعاطي الميسر في شبابه.

عندما مارس رجل الجرذ الجماع الجنسي لأول مرة كان يفكر «هذا شيء عظيم! إنني على استعداد لأني أضحي بوالدي من أجل هذا!» ومن خلال عملية التحليل النفسي اعترف رجل الجرذ أنه حينما كان بين الثالثة والرابعة من العمر قام والده بضربه ضرباً موجعاً لممارسته الاستنماء. فسب أبيه بحماسة وبكل الكلمات التي أمكن لعقله الصغير أن يجمعها قائلاً «أيها المنشفة! أيها الطبق!» لأنه لم يكن يعرف الشتائم حينئذ. رأى رجل الجرذ أباه قد تدخل في حياته الجنسية وما قصة التعذيب بواسطة الجرذ إلا لتُحضر إلى عقله حالة الصراع بين عاطفتي

الحب والكراهية نحو أبيه. وحالما فهم رجل الجرذ هذا التفسير اختفت أعراضه الوسواسية.

والحالة الأخرى الشهيرة عند فرويد في تلك الفترة كانت نوعاً مختلفاً من المرضى. كان هانز الصغير مصاباً بالرهاب مشلولاً من الخوف وكان يبلغ خمسة أعوام من العمر. لم يقابل فرويد في البداية الطفل مباشرة، وكل المعلومات التي كان يحصل عليها فرويد كانت تأتيه عن طريق ماكس غراف Max Graf والد الطفل وعضو في جمعية الأربعاء النفسية. حاولت عائلة غراف أن تنشئ طفلها تنشئة بعيدة عن التحيز الجنسي المعتاد لكن الذي حصل هو مثل ما حصل مع عائلة فرويد وهو أنهم ارتكبوا نفس الممارسات النمطية في تربية الأولاد في ذلك الزمن. وحينما أصبح للسيدة غراف طفلاً ثانياً، فسرت عائلة غراف هذا الحدث على أن لقلقاً قد زارهم، وهي قصة لم يصدقها هانز الولد الذكي لدقيقة واحدة.

أحضر غراف والده هانز إلى عيادة فرويد بعد أن ظهر عنده خوف من أن الخيول سوف تعضه. وكانت هذه مشكلة عسيرة بالنسبة لطفل يعيش في ڤيينا قبل مرحلة إنتاج السيارات على مستوى الجماهير.

إذ كانت هذه الوحوش المرعبة بالنسبة إلى هانز تجوب كل شارع. وبدأ خوف هانز ينتشر من الخيول إلى جميع الحيوانات الكبيرة، وبذلك، بقيت الحيوانات الصغيرة مسالمة بالنسبة له. كما أخذ اهتمام هانز

بالأعضاء الجنسية يزداد باستمرار وظن والده أن هذا الصبي يخشى ربما من القضيب الذكري الكبير عند الحيوانات الكبيرة. ناقش ماكس غراف هذا الموضوع مع هانز مبيناً له أن للحيوان الكبير قضيباً كبيراً مثلما أن للحيوان الصغير قضيباً صغيراً. وكان رد هانز على ما قد سمع مثال بديع على التفكير الطفولي «وكل الناس عندهم فرفورة wi-wi-maker [وهي كلمة هانز المراد بها القضيب الذكري]. وسوف تكبر فرفورتي معي حينما أصبح كبيراً. أي أنها ستبقى ملتصقة بي». إن عبارة هانز بأن جميع الناس لديهم قضيب (من غير اعتبار لجنس الشخص) هو أمر مثير للدهشة، لكن فرويد رأى معنى أعمق من ذلك.

إذ أن إعلان هانز الصريح أن قضيبه مرتبط به يظهر قلقه من احتمال تعرض قضيبه للفصل أو الفقدان، اعتقد فرويد أن هانز يعاني من قلق الخصي. من الذي يريد أن يخصي هانز الصغير المسكين؟ يتوقف الجواب مرة أخرى على الرمز الذي يقدمه العقل اللاشعوري عند هانز. كان لوالد هانز شارباً أسوداً كبيراً بدا لهانز وكأنه كماحة حصان أسود كبير. وفي عمر الخامسة كان هانز في منتصف مرحلة عقدة أوديب، إذ كان يحب أمه ويتمنى موت أبيه لكي لا يشاطره فيها، وإذا علم أبيه بهذه الأمنية فسوف يقطع قضيبه. وفي النهاية سيطر هانز على مخاوفه عن طريق حيلة يحافظ بها على كل من أمه وأبيه. إذ يمكن لهانز أن يتزوج أمه ويمكن لوالد هانز أن يتزوج أمه هو الآخر.

تعافى هانز من الرُهاب ليصبح مديراً ناجحاً لدار الأوبرا. وعندما زار فرويد في عام 1922 قرأ دراسة حالته الخاصة وعلق عليها بأنه لم يتذكر العلاج على الإطلاق. فقد كانت قراءته لها، كما قال مثل قراءته لحالة شخص غريب. من الواضح أن صراع هانز قد تراجع إلى اللاشعور وهو المكان الذي ينتمي إليه.

تأثرت تحليلات فرويد لهذه الحالات الثلاثة بنظرته عن الذكورة والأنوثة. إذ أن مَثَلُ دورا مَثَلُ جميع النساء، يفترض فيها أن تمتثل لسلطة الرجل، وأن تتقبل بخنوع التحرش الجنسي للسيد ك.

وفي المقابل يتوجب على الرجال أن يتخلوا عن ميولهم الأنثوية أو الجنسية المثلية وأن يتحرروا من سلطة أبيهم على الرغم من رغبتهم في اكتساب محبته. بقي فرويد مكافحاً عن هذه القضايا في نظرياته وفي علاقاته الخاصة مع مريديه حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

في شهر أيلول من عام 1909، زيارة فرويد (الذي يقف في الصف الأمامي، الخامس من اليسار) الأولى والوحيدة إلى الولايات المتحدة بناء على دعوة من جامعة كلارك في ورسستر بولاية ماساشوستس. ألقى هناك سلسلة من المحاضرات ويُرى في هذه الصورة مع أعضاء قسم علم النفسي في جامعة كلارك.